

فقه اللغة أو الفيلولوجيا قراءة في اشكالية المصطلح و المنهج في كتب التراث

Fiqh al- lughah or philology: A Reading into the problematic of terminology and Methodology in Classical Heritage Books

عجوج عبد القادر^{1*}، العشابي عبد القادر²

¹ جامعة جيلالي ليابس، كلية الآداب واللغات والفنون

Adjoudjabdelkader2024@gmail.com

² جامعة جيلالي ليابس، كلية الآداب واللغات والفنون

Lachabikader22@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/10/29

تاريخ الاستلام: 2025//09/05

ملخص:

إن اللغة العربية كانت من أهم العناصر التي ساهم بها العرب القدامى في بناء الحضارة الإسلامية، وقد بقي الدين الإسلامي عربياً يرفض أن يستغني عن لغة العرب. لأن القرآن الكريم هو كتاب عربي مبين و العربية هي لباسه و ماهيته.

إن جمع مفردات اللغة و إحصائها و ضبط طريقة اشتقاقها و تصريفها، ووضع قواعد تراكيبيها، و إظهار خصائصها و سننها. كل ذلك كان قاعدة في إنشاء علم جديد هو فقه اللغة العربية عند القدماء ما يقابله بمصطلح الفيلولوجيا عند المحدثين

كلمات مفتاحية: فقه اللغة - الفيلولوجيا - الإشتقاق - الدرس اللغوي - المنهج - المصطلح

Abstract:

The Arabic language was one of the most important elements that the ancient Arabs contributed to building Islamic civilization. Islam has remained an Arabic religion, refusing to dispense with the Arabic language. This is because the Holy Quran is a clear Arabic book, and Arabic is its guiding light and essence. Collecting and enumerating the language's vocabulary, controlling its derivation and inflection, establishing the rules of its syntax, and revealing its characteristics and traditions—all of this served as the basis for establishing a new science, the jurisprudence of the Arabic language among the ancients, the equivalent of the term philology among moderns

Key words: Fiqh al- lughah ,Philology, Derivation ,Linguistic Study, Methodology, Terminology.

مقدمة:

عرف فقه اللغة عند العرب القدامى تطورا ملحوظا على مستوى المصطلح والمنهج. ويمكن أن نتبع إرهابات الدرس اللغوي بمعاينة إسهامات علماء اللغة في هذا الحقل، وبخاصة ما ارتبط بالقضايا التي أثّرت حول مسائل لغة الشعر والقرآن والبلاغة العربية. كان القرآن الكريم الحافز القوي والدافع المحرك للحياة العلمية وكانت الحاجة إلى معرفة لغة القرآن ومقاصده سببا في قيام علوم دينية كالفقه والحديث لتفقيه الناس في أمور دينهم وأصول معاملاتهم في دنياهم، وعلوم لغوية كالنحو والبلاغة ودلالة المعنى، وذلك بضبط اللغة وتقنين قواعدها، لتيسير فهم النصوص القرآنية والوقوف على محتواها الظاهر وأسرارها الباطنية.

إشكالية البحث :

*/ كيف تبلور مصطلح فقه اللغة في كتب التراث؟ و إلأى مدى يمكن مقارنته بمفهوم الفيلولوجيا في الفكر الغربي؟

*/ ما أثر هذا التباين أو التقاطع على بناء منهج لدراسة اللغة والنصوص الأدبية في ضوء التراث و الحداثة؟

منهج الدراسة:

اقتضت الدراسة الاعتماد على منهجين، ارتأينا أنهم يصلحان لهذا النوع من الدراسات، منها ** **المنهج التاريخي** و ذلك قصد إبراز التطور الزمني للمصطلح و كيف أثر في مناهج

البحث

** **المنهج المقارن**: بمقابلة مفهوم فقه اللغة بمصطلح الفيلولوجيا الغربي، من حيث النشأة، الأهداف، و الآليات، مرتكزين على آلي الوصف و التحليل.

بواعث الدرس اللغوي:

بلغت اللغة العربية في العصر الجاهلي، مستوى متقدما من التعبير الأدبي في الشعر والنثر، أتاح لأصحابها قوة تمييز فطرية بين الأساليب على اختلاف درجاتها. وأسس لما عرف بعد ذلك بعلم البلاغة. زفي أشعار الجاهلين كانت تمثل معظم أدبهم، ويرد الكثير من أساليب البيان المختلفة سواء ما يتصل منها باللفظ أو المعنى. وهذا راجع إلى ما فطروا عليه من طبيعة شعرية جميلة.

بلغ اهتمامهم بالشعر ولغته، أنهم كانوا ينقحون أشعارهم، ويعيدون فيها النظر، استدراكا مسبقا منهم، لأي خطأ يمكن أن ينجم في البداة والارتجال، حتى وصفوا قصائدهم: "بالحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات والمذهبات" دلالة على الجودة التي بلغتها هذه القصائد. وفي نفس السياق يقول الجاحظ: "ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكت عنده حولا كريتا وزمنا طويلا، يردد فيها نظره، ويحيل فيها عقله، اشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوله الله من نعمه، وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليات والمقلدات، والمنقحات والمحكمات ليصير قائلها فحلا خنديدا، وشاعرا مقلقا" 1 .

وكان للعرب في العصر الجاهلي نثر في قمة التعبير، وسمو البيان وجزالة اللفظ. وتجلى ذلك في خطبهم الصارمة، فالخطابة ازدهرت وشاعت في العصر الجاهلي بإلزام من ذلك العصر الفروسي، وطبيعة الصحراء، حيث كان الجاهلي يكتسب عيشه بالغزو والقتال، ويتعصب لقبيلته ويفتخر بقومه ونفسه "فالجاهلي محمول على أن يعبر عن آرائه بأدب شفهي مباشر وكانت الخطابة أيسر أسلوب من أساليبه، وأولى الوسائل التي دأب عليها في سبيل التنازع" 2.

و ألهمت الصحراء العرب على قول الأمثال والحكمة، نظرا لما يمتازون به من تجارب عميقة، تمتاز بإجازة اللفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه.

إن الأمثال والحكم والخطابة من المدونة الشفهية التي تداولتها العرب، وهي قليلة بالنسبة إلى الشعر كون قائلها قليلون، كما أنها من الكلام الذي يصعب حفظه وتداوله دون نسيان، وبهذا ضاعت كثيرا من الأمثال والحكم والخطب العربية. وفي هذا يقول ابن رشيق القيرواني في العمدة: "وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة"3

و هكذا لم يكن العرب في جاهليتهم بحاجة إلى جمع لغتهم ودراستها، لأنها كانت تجري على ألسنتهم جريان الفطرة والسليقة. ولعل النصوص الشعرية والنثرية التي وصلتنا عن طريق الرواية والمشافهة، قبل تدوينها في صدر الإسلام لخير دليل على معرفة القدماء بلغتهم والإحاطة الجيدة بخصائصها وسننها.

ولما جاءت الدعوة الجديدة بالقرآن الكريم وإعجازه العظيم، الذي تحدى هؤلاء العرب باللغة التي كانوا يتميزون بإتقانها وبمعرفة أسرار أساليبها في الشعر والنثر. فهذا (الوليد بن المغيرة) لما سمع القرآن الكريم يقول لأبي جهل: "ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدة منه، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلوا ما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته"4. و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح الناس و أعربهم بيانا. قال الامام علي كرم الله وجهه: " ما سمعت كلمة من العربي، إلا سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، و سمعته يقول : " مات حتف أنفه، ما سمعتها من عربي قبله" 5

كان القرآن الكريم الحافظ القوي، و الدافع المحرك للحياة العلمية، و كانت الحاجة إلى معرفة لغة القرآن و مقاصده، سببا في قيام علوم دينية، كالفقه و الحديث، لتفقيه الناس في أمور دينهم، و أصول معمالاتهم في دنياهم. و الحاجة إلى علوم لغوية كالنحو و البلاغة و دلالة

المعنى. و ذلك بضبط اللغة و تقنين قواعدها، لتيسير فهم النصوص القرآنية، و الوقوف على محتواها الظاهر و أسرارها الباطنية.

فكانت بداية الدرس اللغوي لخدمة القرآن الكريم والمحافظة عليه نطقاً وفهماً. ولهذا ربط بعض العلماء ربطاً متيناً بين معرفة اللغة العربية والدين الإسلامي يقول (جلال الدين السيوطي): " ولا شك أن علم اللغة من الدين، لأنه من فروض الكفايات وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنة، أخرج أبو بكر الأنباري في كتاب الوقف والابتداء بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: " لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة"6.

وكان من بواعث الدرس اللغوي تغيير مدلول الكلمات، يقول أحمد أمين: "الإسلام أدخل في اللغة معاني جديدة لكلمات كثيرة كمؤمن ومسلم وصلاة وزكاة وركوع وسجود فمدلول هذه الكلمات في الجاهلية غيره في الإسلام فالصلاة التي كان مدلولها الدعاء، أصبح مدلولها الحركات والسكنات بأشكال خاصة، وكذلك الزكاة كان مدلولها النماء، فأصبح مدلولها إخراج المال في حال معينة وعلى نحو خاص وهكذا"7.

واستشرى الخلاف حول القراءات القرآنية خاصة بعد موت الرعيل الأول من القراء الذين يقطع بأمانة نقلهم وروايتهم الأمر الذي دفع الغياري على نقاء وصفاء هذه اللغة إلى التفكير بوضع قواعد وضوابط لها.

وبعد اتساع الدولة الإسلامية إثر الفتوحات، وامتداد حدودها بعد القضاء على إمبراطوريتي الروم والفرس، أصبحت جزيرة العرب مرتاداً للأعاجم بحكم المصاهرة أو التجارة أو فريضة الحج، وملك عرب الجزيرة الكثير من الرقيق، فاختلط العجم بالعرب في البيوت وفي الأسواق وفي المناسك والمساجد، فتطرق من ذلك الخلل في لسان العرب، وأخذ الفساد يدب في تلك السليقة، وظهر اللحن. وسنحت الفرصة تحت وطأة الضرورة للتحري اللساني وجمع اللغة ضمن شروط ومعايير في قواميس ومعاجم ومختارات. ومن جملة المقاييس المعتمدة في

جمع المادة المعجمية، شرط تحديد مواطن الفصاحة وعصورها وأصحابها من العرب و الأقباح.

هذه هي بواعث الدرس اللغوي، وقد ظهرت مجموعة من مصطلحات على أنها أسماء لعلوم لغوية معينة من أشهرها (اللغة - النحو - العربية) أما اللغة فكانوا يطلقونها على العلم الذي يختص بجمع الألفاظ اللغوية، ودراستها وينسب إليه، فيقال "لغوي" وهو العالم الذي يعرف قدرا كبيرا من ألفاظ اللغة، وعلى الأخص الألفاظ الغريبة منها، أو هو التخصص في إخراج المعاجم اللغوية، جاء في المزهري في الفرق بين اللغوي والنحوي: "اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيه، ويبسط فيه علله وقيس عليه الأشباه والأمثال"8.

وهذا التمييز يؤكد أن عمل اللغوي كان مقصورا على جمع الألفاظ اللغوية، كما يجمع المحدثون نصوص الحديث. وقد أضاف ابن خلدون في فصل (علوم اللسان العربي) كلمة "علم" على مصطلح "اللغة" ومن شرحه له يتضح أنه يشمل علم المعاجم على اختلاف أنواعها فيقول في باب بعنوان (علم اللغة): "هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى ولج الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجته المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين"9.

أما مصطلح "النحو" فإنه قد نشأ وتكامل في ظل القرآن الكريم، وأن العربية قد جددت في خدمة آيات الذكر الحكيم. فيقول أبو عبيدة: "أخذ النحو عن علي بن أبي طالب أبو

الأسود، وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن علي كرم الله وجهه على أحد حتى بعث زيدا أن أعمل شيئاً يكون للناس إماماً يعرف به كتاب الله...¹⁰ فالغاية من وضع كتاب في النحو يكون إماماً هادياً للناس في تصويب لغتهم والنطق بها فصيحة على مذاهب العرب وأساليبهم، وأن يكون مرشد لهم في تفهم كتاب الله ومعرفة دقائق معانيه، لاسيما أن كثيراً من الأمم الأعجمية قد اعتنقت الإسلام. فيقول أبو الأسود الدؤلي في الحديث عن أسباب وضع النحو: "هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه، فصاروا لنا إخوة، فلو عملنا لهم الكلام". فأبو الأسود، على حد تعبير هذا النص يطلق على صنيعة في هذا الباب "عمل الكلام". ويتحدث ابن جني عن معناه اللغوي والاصطلاحي فيقول: "وهو أي النحو في الأصل مصدر شائع نحوت نحواً كقولك قصدت قصداً، ثم خص به انتحاء هذا القليل من العلم، كما أن الفقه مصدر فقهت الشيء أي عرفته ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحريم"¹¹ وكان النحو مشتملاً على النحو والصرف معاً، وقد فصل ابن جني الأهداف العملية من وجود النحو بثوبه الإسلامي قائلاً: "هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية، والجمع، والتحقيق، والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها"¹².

ونلتقي بمصطلح آخر هو علم العربية وكان العرب يطلقونه على النحو أيضاً يقول ابن فارس: "وكذلك الحاجة إلى علم العربية فإن الإعراب هو الفارق بين المعاني، ألا ترى أن القائل إذ قال: "ما أحسن زيد" لم يفرق بين التعجب والاستفهام والجزم إلا بالإعراب"¹³. نحن، إذن، أمام المصطلحات الآتية، اللغة أو علم اللغة، والنحو أو صناعة الكلام أو علم العربية، اختص الأول بدراسة الألفاظ اللغوية من جوانب مختلفة، وأن الثاني اختص بدراسة التراكيب والجمل وتلقيدها وإعرابها.

وفي القرن الرابع الهجري نشهد مصطلح جديدا هو "فقه اللغة" .

فقه اللغة أو الفيلولوجيا عمدة الدرس اللغوي في التراث:

إن الدراسات اللغوية تأثرت منذ نشأتها الأولى بمناهج العلوم الدينية مثل الفقه و علم الكلام ويتحلى ذلك بوضوح في المصطلح الذي استعمل أو أطلق على الدرس اللغوي من قبل لغويننا القدامى، وهو مصطنع فقه اللغة (الذي ظهر في القرن الرابع الهجري إن أول من استخدم اصطلاح فقه اللغة كان ابن فارس) ات (395هـ) في كتابه (الصاحبى في فقه اللغة و من العرب في كلامها). ثم نصادف هذا الإصطلاح بعد ذلك في عنوان كتاب (التعالى : (فقه اللغة وأسرار العربية) ولكننا نجد مفهوم فقه اللغة مختلفا عند الرحلين (تين المطلع على كتاب (ابن فارس) "الصاحبى في فقه اللغة " أن مادته هي دراسة القوانين العامة التي تنظم اللغة في جميع مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والأسلوبية أما الثعالى فيرى أن فقه اللغة علم حاص بقه وفهم معاني المفردات و تميز مجالات استعمالاتها الخاصة والاهتمام بالفروق الدقيقة بين معانيها.

ولما تستعرض مفهوم المصطلح في البحث اللغوي الحديث المحدث أن كلمة فقه اللغة ظهرت في العالم العربي الحديث في الجامعة العربية المصرية، عند استقدام جماعة من المستشرقين ليعاونوا في التدريس " . " ذكر السنيور (جويدي) في محاضراته الأولى بالجامعة المصرية في أكتوبر 1962 أن مصطلح فقه اللغة الذي يقابله كلمة philologie في درس القواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية ومنهم من يرى أن هذا العلم ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث في الحياة العقلية من جميع وجوها وإذا صح ذلك فمن الممكن أن يدخل في دائرة (الفيلولوجي) علم اللغة و فنونها المختلفة، كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلم البلاغة وعلم الأدب في معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم، و تاريخ الفقه ... وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب الدينية و اللاهوتية و تاريخ

الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام ولا سبيل إلى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذي نشأت فيه تلك الآثار الأدبية "3.

فهو علم جامع لكثير من علوم اللغة وفنونها، يقول صبحي صالح: "نستطيع أن نعرف فقه اللغة بأنه منهج للبحث استقرائي وصفي، يعرف به موطن اللغة الأولى، وفصيلاتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة، الشقيقة أو الأجنبية و خصائص أصواتها، وأبنية مفرداتها وتراكيبها و عناصر لهجاتها وتطور دلالاتها ومدى نمائها قراءة و كتابة4 و تقريبا بنفس المهوم للمصطلح بحمدته عند الدكتور (رمضان عبد التواب في كتابه " فصول في فقه العربية " : " تطلق كلمة فقه في اللغة عندنا الآن على العلم الذي تحاول الكشف عن أسرار اللغة، والوقوف على القوانين التي تسير عليها في حياتها، ومعرفة من تطورها، ودراسة ظواهرها المختلفة، دراسة تاريخية من جانب، وما يمكن استنتاجه من خلال استعراض مفهوم مصطلح فقه اللغة ومادته بين روصفية من جانب آخر 3 اللغويين القدامى والمحدثين أن هذا المصطلح عربي خالص لا يعرفه الغربيون في لغاتهم.

ويعزو (ابن خلدون) إلى (التعالی) وحده فضل الاختصاص بالتأليف في محال فقه اللغة و يقول بصريح العبارة " تم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم، ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها فوق ذلك هدنا بين الوضع و الاستعمال و احتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ واختص بالتأليف في هذا شحي التعالي و أفراده في كتاب سماء فقه اللغة. وكان (ابن فارس) السباق إلى استخدام فقه اللغة والتأليف فيه من غير أن ينكر فضل سابقه كما صرح قائلا " والذي جمعناه عنا أفضل الجزاء ، و إنما لنا فيه اقتصار مبسوط، أو مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرق ما عدا هذين الكتابين فلم يرد مصطلح فقه اللغة في المؤلفات اللغوية الأخرى إن علماء " فقه اللغة العرب المخذوا اللغة وسيلة لغاية سامية و درسوا العربية من كل جوانبها الفهم لغة القرآن الكريم و كان المبتغى الإحاطة

بلغتهم والاهتمام بجمعها وتدوين مفرداتها وتوضيح منها وتوعدها و إبرازا لأصالتهم و هويتهم خدمة لكتابهم المقدس طع

وعلى هذا النهج ظلت الدراسات اللغوية اللاحقة تسير حتى القرن الثامن عشر الذي تم فيه اكتشاف السكيرية من قبل (السير وليم جونز) فتغير مجرى الدراسات وتحولت الشغالات اللغويين إلى المسائل التاريخية و المقارنة وظهر اتجاه يهتم بدراسة اللغات الهند وأوروبية وظهر مصطلح الفيلولوجيا عند الغربيين ما يقابل لله اللغة " عند العرب وهو الأصل الذي تفرعت منه اللسانيات خاصة مع ظهور (فرديناند دي سوسير (10) الذي اعتمد المنهج الوصفي وفتح الطريق للدراسات الحديثة ثم واصل أتباعه عمله وطوروا اللسانيات المعاصرة تطويرا ساهم كثيرا في تجديد العديد من العلوم الإنسانية وسيأتي بيان مصطلح الفيلولوجيا في الفصل الموالي.

و لعل أول ما نود أن تلفت إليه هو أن تعرض لهذا السؤال الذي شغل به عدد من الباحثين المعاصرين يصدر عن منهج خاص بهم؟ أم أنهم تأثروا بمصادر خارجية؟ إن وهو : هل كان العرب - في دراستهم للغة يصدر عن منهج خاص بهم؟ أم أنهم تأثروا بمصادر خارجية؟ إن الذي تعرفه أن هناك اتجاها معاصرا يجهد نفسه في البحث عن مصادر خارجية لتفسير الحياة العقلية عند العرب و يلتمس ذلك عند اليونان على وجه الخصوص كما ترى في كتابات طه حسين ومن ثم يذهب أصحابه إلى أن الدرس اللغوي عند العرب مثال بالفلسفة اليونانية بل مأخوذ من منطق أرسطو، ويعملون ذلك بوجود تشابه في بعض المصطلحات التي وردت في النحو مثلا والتي عرفت عند أرسطو ولينا هنا بصدد التفصيل في هذا الموضوع لأنه حقيق بدرس مفصل، إلا أن هناك تجاه آخر، إلى أن العرب تأثروا بأخود في دراسة اللغة، مشيرين إلى ما قد يكون هناك من تشابه بين منهج الخليل في

العروض وفي ووصف الأصوات وبين المهج الهندي، غير أن البحث العلمي الموضوعي لا يقر شيئا من هذا التأثير إذ لا تتوافر لدينا أدلة مادية ترجحه أو تشير إليه 11 والذي لا شك فيه عندنا أن الدرس اللغوي للعربية نشأ وتطور في " مناح " عربي، ومن ثم فإن محاولة فهمه من " خارج " هذا " المناخ " تؤدي إلى أخطاء فضلا عما يخنف بها من أخطار ومن الحقائق المقررة أننا لم ندرس بعد كل ما قدمه العلماء العرب من دراسات في اللغة، وعلى ذلك فإن " الحكم " على المنهج العربي بأنه منهج " منقول " أو " غير عربي " حكم تنقصه الدقة العلمية و الذي اتفق عليه علماء اللغة المحدثون هو الدعوة إلى درس كل ما قدمه أسلافنا حتى تتوافر لدينا المادة الصالحة لتاريخ منهجهم فيه وإذا كان لنا أن نلتمس بعض المصادر التي تأثر بها الدرس اللغوي عند العرب، وإنما تلتمسه " داخل " الحياة العقلية عند العرب، وأهم هذه المصادر الفقه والكلام إن جهودهم لم تتوقف عن تناول النصوص اللغوية الأدبية بالشرح والتحليل على أساس لغوي وضعي، ومن المقبول والمفهوم أنهم تناولوا النصوص المتأخرة " بمعيار " الفترة الزمنية التي قصروا عليها درسهـم و التي جعلوها نموذجا للغة الموحدة، وماذا في ذلك والهدف منه حفظ اللغة وتقويتها، ليس من الضروري أن يعيب على قدامتنا منهاجها يهدف إلى حفظ حياة الأمة بسماتها الخاصة التي تميزها من غيرها من الأمم. والحق أيضا أن العرب لم يدرسوا لعنهم على أساس " المنهج المقارن " لأنهم رأوا في لغتهم ما أوضحناه من " تفضيلهم " إياها على ما سواها من لغات، ويتمثل المنهج الوصفي لديهم فيما يلي :

1- إن طريقة جمعهم للمادة اللغوية اعتمدت على منهج واقعي واضح، فقد حددوا البيئة التي يصح أحد اللغة عنها، وذلك بأن حصروها في المناطق البادية من شبه الجزيرة العربية، معللين ذلك بأن الحواضر وأطراف الجزيرة لا تمثل لغتها لغة العرب تمثيلا صحيحا، لتعرضها المؤثرات الأجنبية " فلم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان

يسكن أطراف بلادهم التي تحاور سائر الأمم الدين حولهم 12 وقد كتب ابن حتى بابا بعنوان " فيترك الأخذ عن المدر كما أخذ عن أهل الوبر " قال فيه : " حملة امتناع ذلك ما عرضت للغات المحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخلل. ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم، و لم يتعرض شيء من النقاد لغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر وكذلك أيضا لو فشلنا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الأسنة وخيالها، وانتقاص عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها، وترك تلقى ما رد عنها وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا، لأننا لا تكاد ترى بدويا فصيحاً وإن من أننا منه فصاحة في كلامه لم تكد تعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه، وينال وبغض من 13 - و معنى ذلك أن (أبا الفتح) يجعل المقياس الضروري صحة المصدر اللغوي، وذلك بالبعد عن المؤثرات الخارجية، وعلى ذلك فإن البدو الذين ثارت لغتهم لا يصح الاعتماد عليهم وذلك من الخصائص التي يتطلبها الدرس الحديث فيما يعرف باسم 14informateur

وهو الشخص الذي يعتمد عليه الباحث في جمع مادته اللغوية، إذ ينبغي أن يكون من بين الذين يمثلون لغتهم تمثيلاً صحيحاً دون تأثيرات خارجية، ومثل هذا التحديد للبيئة اللغوية و للمصدر الذي يعتمد عليه هو ما و نمد عليه شواهد كثيرة عند ابن حنى، حيث تبدو لنا طريقته في جمع مادته من المصدر البشري، من ذلك ما يرويه عن لقاءاته مع أبي عبد الله الشجري، وهو أعرابي ممن اعتمد عليهم أبو الفتح) : " وسألته يوماً فقلت له : كيف تجمع دكانا فقال : دكاكين، فقلت : فسرحانا ؟ قال : سراحين، قلت : فقرطانا؟ قال : قراطين، قلت : قزمان؟ قال : عثمانون. فقلت له : هلا قلت أيضاً عثمانين؟ قال : أيش عثمانين! أرايت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته، و الله لا أقولها أبداً ومعنى ذلك أيضاً أن العرب درسوا اللغة باعتبارها لغة " منطوقة " وليس باعتبارها لغة " مكتوبة"، و هو أساس الدرس اللغوي الصحيح و السمة الثانية من سمات المنهج الوصفي، أنهم - بعد جمعهم للغة من بيئتها التي حدوها

ومن مصادرها البشرية - صنفوا مادتهم اللغوية على أساس وصفي، نقصد أن الصفة الغالبة على تصنيفهم هي الصفة التقريرية وكلمة الكسائي في ذلك مشهورة حين " مثل في مجلس يونس عن قولهم الأضربن أيهم يقوم، لم لا يقال : الآخرين أيهم؟ فقال : أي هكذا خلقت 16 . و"هكذا خلقت " هي جوهر المنهج الوصفي لا جدال. وفي كتب ابن فارس و الثعالبي معا لا يخرجان عن هذا المنهج، فلا تجد تعليلا للظواهر اللغوية التي يوردانها، ومن هنا غالب على الكتابين تعبيرات واحدة من مثل : " ومن من العرب أن يعترض بين الكلام و تمامه كلام، ولا يكون هذا المعترض إلا مفيدا، و مثال ذلك أن يقول

القال : أعمل - والله ناصري - ما شئت إنما أراد أعمل ما شئت و اعترض بين الكلامين ما اعترض ... ومن مثل العرب تشير إلى المعنى إشارة و تومئ إيماء دون التصريح، فيقول القائل : لو أن لي من يقبل مشورتني أشرت، وإنما يحث السامع على قبول المشورة وهو في أشعارهم كثير" وهكذا في القسم الثاني من الكتابين بوجه عام ". و هذا المنهج الوصفي ظاهر غاية الظهور فيما قدمه (ابن جني) من وصف للأصوات.

-2- أن دراستهم للغة لم تقتصر على " مستوى " واحد، وإنما شملت ما يدعو عليه المنهج الحديث، فدرسوا الأصوات و الصرف و النحو و الدلالة، وتناولوها تناولاً وصفياً على ما ظهر مما قدمناه من وصفهم للأصوات المفردة و الأصوات في الكلام بل الإحساس بعائلة الصوت الواحد فيما يعرف بالفونيم وعلى ما ظهر من فهمهم للنحو بأنه دراسة الجملة، و من دراستهم " للفصائل النحوية " في مقدمات كتبهم، ثم ما ظهر من دراستهم على المستوى الدلالي سواء كان على مستوى المعجم أو على مستوى المعنى عموماً المنهج إذن - في معظمه - منهج لغوي وصفي، وإذا كان العرب لم يقدموا منهجاً تاريخياً ولا منهجاً مقارناً، فإن هذا الذي قدموه خليق بالدرس و الاهتمام . وقد أجمع علماء اللغة إن أصلح منهج الدراسة فقه اللغة هو المنهج الاستقرائي للغة يقول الدكتور صبحي صالح) : " إن فقه اللغة منهج

للبحث الاستقرائي وصفي يعرف به أصل اللغة التي يراد دراستها، وموطنها الأول وفصيلتها وعلاقتها المحاورة أو البعيدة الشقيقة أو الأجنبية، وخصائصها وعيوبها ولهجتها وأصواتها ، وتطور دلالتها، ومدى نمائها قراءة وكتابة 19

ولقد عاصرت نشأة الدراسات اللغوية نشاطا علميا ضخما شمل التدوين ودراسة اللغة العربية في خصائصها ومظاهرها ولم يكن من منهج يناسبها إلا المنهج الوصفي الذي تناول اللغة العربية في بيئتها ووسط ظروفها وشروطها التاريخية والسياسية والاجتماعية وخاصة الدينية.

الهوامش:

- 1- عبد العزيز عتيق - تاريخ البلاغة العربية/ص8
- 2- إلبا حاوي- فن الخطابة و تطوره عند العرب/ ص32
- 3- صالح بلعيد- في قضايا فقه اللغة العربية/ص52.
- 4- أحمد الهاشمي- جواهر البلاغة/ص7
- 5- المرجع السابق/ نفس الصفحة
- 6- جلال الدين السيوطي- المزهري في علوم اللغة و أنواعها، ج2/ص203
- 7- أحمد أمين- ضحى الاسلام، ج2/ص250
- 8- جلال الدين السيوطي- المزهري في علوم اللغة/ص30
- 9- ابن خلدون- المقدمة/ص443
- 10- عبد الكريم خليفة- تيسير العربية بين القديم و الحديث/ص 20
- 11- المرجع نفسه /ص20
- 12- ابن جني- الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ج1/ص34
- 13- ابن جني - الخصائص، ج1/ص34
- 14- ابن فارس- الصحابي في فقه اللغة/ص66
15. ينظر: عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص41.

16. ينظر : محمد أبو الفرج، مقدمة لدراسة فقه اللغة، ص 59.
17. محمد سليمان ياقوت، فقه اللغة و علم اللغة، نصوص و دراسات، ص 59.
18. صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، ص 22.
19. رمضان عبد التواب (ينظر كتاب فصول في فقه اللغة، ص 11).
20. ابن خلدون، المقدمة، ص 445.
21. د ابن فارس الصاحب في فقه اللغة التحقيق مصطفى الشوي من 31
22. ينظر بلعيد صالح مصادر فقه اللغة، ص 69
23. صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، ص 20.
24. زير براق، دراسات في فقه اللغة، ص 61.
25. المرجع نفسه، ص 17.
26. المرجع نفسه، ص 17.
27. نظر : إبراهيم بيومي مذكور : منطق أرسطو و النحو العربي - محلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة - العدد السابع، ص 338.
28. علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ص 113.
29. ابن فارس - الصاحب، ص 88.
30. ينظر : كتاب البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب، ص 127.
31. عبده الراجي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 175.
32. المرجع نفسه، ص 175
33. ابن جني، الخصائص ج : 1، ص 48.